تحليل الخطاب وإشكالية القراءة

* من سلطة النص إلى سلطة القارئ *

أ.حمزة بوساحية

جامعة عبد الحميد بن باديس

مستغانم– الجزائر

ملخص:

مع التحولات التي شهدها العصر الحديث عرف الدرس النقدي جدلية مناهجية في تحليل الخطاب؛ حيث تنوعت وتعددت مقاربات وقراءة النصوص حسب مركزية الدائرة الإبداعية،فالمناهج السياقية (تاريخية،نفسية،اجتماعية) اهتمت بالمؤلف وجعلت منه مركزا في تحليل الخطاب،أما المناهج الحداثية النسقية(بنيوية وأسلوبية وسيميائية) فركزت في تحليلها على النص وأغلقت النسق وسجنت القارئ،مما جعل من مناهج ما بعد الحداثة (نظرية القراءة والتلقي،التأويل،التفكيك) أن تحرر القارئ من سجن النسق وعتقه من بنية العلامة ليصبح قارئا منتجا.

وقد شغلت القراءة كفعل مهم في تحليل الخطاب حيزا كبيرا في مناهج النقد المعاصر،تناولها الباحثون من زوايا مختلفة بحسب توجهاتهم المناهجية مما أحدث إشكالية كبيرة في محاولة القبض على الدلالة والمعنى كالبنيوية والتأويل والتفكيك.وعليه جاءت هذه المداخلة لتستجلي إشكالية القراءة في الدرس المابعد حداثي بتفحص جملة الاختلافات القائمة بين تلك المناهج.

الكلمات المفتاحية: القراءة؛ القارئ؛ الدلالة؛ نظرية القراءة والتلقي؛ التفكيك، التأويل.

Résumé

Avec les changements observées aux temps moderne, la leçon critique a été définie comme une polémique dialectique dans l'analyse du discours; il ya eu des approches et de texte de lecture variés par la centralité du cercle créatif ou l'on trouve des méthode contextuelles (historiques- psychologiques- sociales) qui ont intéressé l'auteur et l'ont placé au centre de l'analyse du discours, des approches modernistes (structurelle- stylistiques et sémiotiques) axées sur l'analyse de texte ont fermé le format et emprisonné le lecture, ce qui a permis d'adopter des approches postmodernes (théorie de la lecture et de la recevoir-interpréter- désassembler…)en essayant de libérer le lecteur de la prison du format pour devenir un lecteur productif.

lecture a joué un rôle important dans l'analyse du discours dans les méthodes de critique contemporaines, que les chercheurs ont abordées sous différents angles en fonction de leur approche du curriculum, ce qui a posé de gros problèmes pour tenter de saisir l'importance du structuralisme et de l'interprétation et du désassemblage. Cette intervention est venue clarifier le problème de la lecture dans la leçon au-delà différences entre ces approches.

Mots-clés: lecture; lecteur; signification; théorie de la lecture et de la recevoir désassemblage; interprétation.

أولا– تحليل الخطاب والقراءة الحداثية (سلطة النص)

01– النص/النسق وإزاحة السياق

عرف تحليل الخطاب في الدرس النقدي الحديث والمعاصر جملة من التطورات والتحولات مما أفرزت مناهج نقدية جديدة سميت بالمناهج النسقية خلافا لما سبقها المسماة بالمناهج السياقية؛حيث تركز هذه المناهج الجديدة على أدبية الأدب لتجعل هَمَّ قراءتها داخل نظام مستقل لمعرفة قيمته الجمالية النابعة منه وهي بذلك تؤسس رؤية مغايرة للنص/الخطاب ليصبح عندها نصا منغلقا على ذاته مستقلا عن عالمه الخارجي سواء كانت نفسية أم تاريخية أم اجتماعية...هذه الرؤية الجديدة للنص كانت نقلةً نوعيةً لتحليل الخطاب من السياق إلى النسق وتزعمتها البنيوية التي انطلقت في عمليتها التحليلية له والكشف عن بناه من داخل اللغة لا من خارجها،وراحت تتعامل مع المؤلف بنوع من السلطة القاهرة فأسقطته بمقولة "موت المؤلف"وهي فكرة ترتد إلى جذور فلسفية غربية وذلك حين أعلن نيتشه "موت الإله" وروجي غارودي "موت الإنسان" لتلاقي هذه الفكرة ترحيبا كبيرا في مجال الدراسات الأدبية والنقدية التي عدت تعبيرا عن لحظة التحول في أوروبا آنذاك.فقد أعلن الأدباء موت الشخصية في المجال الأدبي وموت المؤلف في المجال النقدي[1] مع رولان بارت إذ يقول: **<<الكتابة قضاء على كل صوت،وعلى كل أصل.الكتابة هي هذا الحياد،هذا التأليف واللف الذي تتيه فيه ذاتيتنا الفاعلة،إنها السواد–البياض الذي تضيع فيه كل هوية،ابتداء من هوية الجسد الذي يكتب>>**[2] وبذلك تكون الكتابة عند"رولان بارت"موتا للمؤلف الذي يموت بانتهاء تأليفه فتضيع تلك الذات الفاعلة فلا يبقى إلا النص ونسقه المغلق .هذا النسق الذي لا علاقة له بالأشخاص بعيدا عن الذات إذ أصبح سهما خاطفا يخترق الإنسان.[3] وسجنت القارئ لتجعل منه قارئا مستهلكا لا قارئا منتجا،وأعلت من شأن النص لتصنع منه مركزا سلطويا. ونجد أيضا المنهج السيميائي الذي اتخذ في عملية تحليله للنص ثنائية قام عليها تحليل الخطاب هي ثنائية الداخل والخارج وتبنيه للأول باعتباره أساسا ومركزا،فالسيمياء بحث في داخل النص عن إشارات وعلامات ورموز باعتبارهم مفاهيمها الأساسية **<<فهو في تركيزه على حياة العلامة في النص،ومعالجتها شكلانيا يشبه إلى حد بعيد نشاط النقد الجديد في اعتباره النص كيانا مغلقا على نفسه لا يحيل إلى خارج ذاته>>**[4].وعليه إن تحول تحليل الخطاب من السياق إلى النص قد حول معه مفاهيمه ومصطلحاته؛حيث جعل من مفهوم النسق/البنية أساسا ومركزا في عملية القراءة يسعى من خلاله إلى ربط العناصر داخل نظام واحد ودراسة العلاقة بينها من أجل بناء نظام كلي متكامل ومتناسق داخل اللغة/النص فهو طريقة منهجية في محاولة القبض على البنى الكلية وطريقة ترابطها وتفاعلها فيما بينها.ليُطْرَحَ السؤال ما هو النسق؟

- **مفهوم النسق:**

أ– المفهوم اللغوي:

إن الغياب المفهومي لمصطلح النسق داخل الساحة النقدية العربية لم يلغ غياب المصطلح في المعجم اللغوي العربي فقد جاء في "لسان العرب" لابن منظور في مادة (ن س ق) والتي تعني النظام **<< والنسق من كل شيء ما كان على طريقة نظام واحد عام في الأشياء،وقد نَسَّقْتُهُ تنسيقا،نَسَقَ الشيء ،ينسقه نسقا،ونَسَّقَ نظَّمه على السواء،وانْتسق هو تناسق والاسم النسق>>**[5] ومنه دون الإطالة في سرد التعريفات اللغوية التي رأيناها مشابهة أن النسق في المعجم اللغوي العام لم يخرج عن معنى النظام والانتظام والترتيب،أي النظام الذي تنظم عناصر الموضوع تنظيما مرتبا مما يدل على تكامله بنيويا ووظيفيا.

ب- المفهوم الاصطلاحي:

يتفق كثير من النقاد ومن بينهم "كمال أبوديب" على أن مفهوم النسق مفهوم زئبقي غير قابل للتحديد النهائي قائلا: <<**مفهوم النسق ودوره في تشكيل بنية العمل الأدبي ما يزال شبه غائب**>>[6] وقد شكلت قضية النسق كمصطلح حيزا من أعمال اللساني دي سوسير داخل نظرية النسق اللغوي؛حيث رأى أن النسق هو مجموع من العناصر اللسانية التي تكتسب قيمتها بعلاقاتها فيما بينها[7] فالنسق بهذه الرؤيا نظام يتكون من عناصر لسانية لها استقلال ذاتي من ناحية،وتشكل كلا موحدا من ناحية أخرى. وقد جاء استخدام مصطلح النسق مردفا لمصطلح البنية يقول عبد الله الغذامي:<<**يجري كثيرا في الخطاب العم ولخاص وتشيع في الكتابات إلى درجة قد تشوه دلالتها،وتبدأ بسيطة كأن تعني،ما كان على كل نظام كما في تعريف المعجم الوسيط،وقد تأتي مرادفة لمعنى(البنية)(structue)أو معنى النظام (system) حسب مصطلح دي سوسير،واجتهد باحثون عرب في تصميم مفهومهم الخاص للنسق**>>[8] إن قول الغذامي هذا يفرض علينا الرجوع إلى مصطلح البنية وهل هي المفهوم المرادف للنسق أم إنهما مختلفان.

تشتق كلمة البنية من الفعل الثلاثي (بنى) والاسم (البناء) وتعني الهيكل الثابت أو التشييد والتعمير والتركيب والطريقة واستعمل هذا المصطلح في أوروبا منذ القرن السابع عشر(17م)في الميلاد المعماري ليؤدي إلى معنى التشكيل الفني الهندسي.[9] ويعرض"يوسف وغليسي"في مقال له بعنوان البنية والبنيوية في المعاجم والدراسات الأدبية واللسانية تعريفا لمصطلح البنية يقول: <<**فإن كلمة البنية (structue) بالرسم الفرنسي والإنجليزي الموحد أو(structura) باللاتينية والبناء (construction) /.../تمتدان إلى الفعل الفرنسيdétruire(بمعنى الهدم والتقويض والتخريب) الذي يمتد إلى الفعل اللاتيني "struere" بمعنى:تنضيد الموارد/.../ أو تأسيس البناء والتشييد(Bâtir)**>>[10] فالبنية في اشتقاقها اللغوي تعني الطريقة والبناء،الهيكل التأسيس للأشياء،والهيئة التي يوجد بها الشيء أو يوجد عليه.

إن هذه التعريفات المعجمية لا تستوفي المعنى إلا بعد إكمال البعد الاصطلاحي؛حيث يعرف "جان بياجيه" البنية قائلا: هي<<**مجموعة تحويلات على قوانين كمجموعة (تقابل خصائص العناصر) تبقي أو تغتني بلعبة التحويلات نفسها، دون أن تتعدي حدودها أو أن تستعين بعناصر خارجية .وبكلمة موجزة،تتألف البنية من ميزات ثلاث: الجملة،والتحويلات،والضبط الذاتي**>>[11] يعتبر"جان بياجيه"البنية أنها نسق من التحويلات ،علما بان هذا النسق يظل قائما بفضل الدور الذي تقوم به هذه التحويلات دون أن تستعين بعناصر خارجية؛حيث يتضمن هذا التعريف السيمات المميزة للبنية إذ إنها نسق من التحويلات الداخلية واستقلالية هذا النسق عن العناصر الخارجية و هذا يسمح ما يسمح لها بتطورها داخليا.ونلاحظ في نهاية التعريف الخصائص الثلاث(الجملة أو الكلية ،التحولات ،الضبط الذاتي)[12] ويشرح "زكريا إبراهيم" هذه الخصائص الثلاث فالسمة الأولى (الجملة أو الكلية) تعني:<<**إن البنية لا تتألف من عناصر خارجية تراكمية مستقلة عن ((الكل)) بل هي تتكون من عناصر داخلية خاضعة للقوانين المميزة للنسق.**>>[13] فالجملة تعني ذلك التماسك الداخلي لعناصر البنية التي ينظمها النسق.أما الخاصية الثانية (التحولات) فتعني تلك التغيرات الحاصلة داخل البنية التي لا يمكن أن تظل في حلة ثبات دون الاستناد على أي عوامل خارجية.ويعني (التنظيم الذاتي)أن البنية تنظم ذاتها ونفسها ومنغلقة على ذاتها وهذا ما يضمن بقاءها ويحفظ وحدتها.[14]

ويرى"ليفي شتراوس" أن البنية هي نسق أو نظام فيعرفها بقوله:<<**المبدأ الأساسي هو أن مفهوم البنية لا يستند إلى الواقع التجريبي،بل إلى النماذج الموضوعة بمقتضى هذا الواقع وهكذا الإتلاف بين مفهومين متجاورين جدا حيث وقع الالتباس**

بينهما غالبا اقصد مفهوم البنية الاجتماعية ومفهوم العلاقات الاجتماعية. إن العلاقات الاجتماعية هي المادة الأولى المستعملة في صياغة نماذج توضح البنية الاجتماعية،إذ لا يمكن بأي حال إرجاع هذه البنية إلى مجمل العلاقات الاجتماعية التي يتسنى ملاحظتها في مجتمع معين.>>[15] من هذا التعريف يستخلص "الزواوي باغورة "مجموعة من الخصائص أهمها:

- البنية غير الواقع التجريبي،وإنما هي النموذج من هذا الواقع فالبنية نتعرف عليها انطلاقا من نماذج معينة.
- البنية متخفية غير مرئية باطنية لا شعورية؛أي ذات طبيعة عقلية.[16]

و بذلك يجمع"ليفي شتراوس" البنية بالنسق إذ يرى عناصرها المتزنة ثابتة،لكن إذا تعرضت للتبديل والتغيير فإنها تفقد عنصر النسقية ويشترط في ذلك أربعة شروط حتى تستحق اسم البنية تتمثل في :

01- أن تتسم البنية بطابع المنظومة،فهي تتألف من عناصر يستدع تغير احدها تغير العناصر الأخرى .

02- كل نموج ينتمي إلى مجموعة من التحويلات التي يتطابق كل منها نموذجا من أصل واحد بحيث أن مجموع التحولات يشكل مجموع من النتائج.

03- أن الخصائص المبنية أعلاه تسمح بوجود رد فعل النموذج عند تغير احد عناصره .

04- يجب بناء النموذج بحيث يستطيع عمله توسيع جميع الوقائع الملاحظة.[17]

من خلال ما سبق تكون البنية**<<[عبارة عن نظام] أو نسق من العلاقات الباطنية له قوانينه الخاصة والمحايثة؛من حيث هو نسق يتصف بالوحدة الداخلية والانتظام الذاتي على النحو الذي يقضي فيه أي تغير في العلاقات إلى تغير النسق نفسه>>**.[18]

02- الدلالة * وسلطة النص:

إن الحديث عن سلطة النص إنما هو في الحقيقة حديث عن المناهج النسقية وتحديدا البنيوية ذلك باعتبارها منهجا نقديا يسعى إلى الوصول إلى نظام اللغة والنص،فاتخذت من اللغة مركزا لها واعتبرتها مجموعة من العلامات المترابطة في ما بينها،وهذا الترابط الذي سيتشكل من خلاله تكون الدلالة/المعنى وإن هذه الأخيرة تتشكل داخل النظام اللغوي وفي بنية النص الأدبي. والبنية عند البنيويين هي أساس الدلالة لكن موضوع التحليل البنيوي لا يسعى إلى اكتشاف هذه الدلالة،إنما موضوعه هو كيفية تشكلها وكيفية الوصول إلى النسق والنظام المتحكم في عناصر النص[19] وبذلك تصبح الدلالة غير مهمة عندهم وهذا ما واضحة عبد العزيز حمودة بقوله:**<<تنطلق من وجود المعنى كأمر مسلم به ومفروغ منه،ومن ثم تتحول عن دراسة المعنى إلى آليات خلق المعنى حسب قواعد علمية وهذا/.../ باعتباره تجاهلا واضحا للمعنى وسلطة النص>>**[20]. إن هذه النظرة البنيوية للدلالة لم تكن وليدة من فراغ،إنما هي راجعة من تأثرها بالدراسات اللغوية السوسيرية وكذا دراسات الشكلانيين الروس والنقد الجديد حيث نظر هؤلاء إلى الدلالة/المعنى على أنها ليس لها أهمية بقدر ما للبنية وكيفية وآليات تشكلها من أهمية في التحليل ودراسة النص.

إن دعوة المناهج النسقية في إعلائها من سلطة النص ذلك لرؤيتها له بأنه يمتلك من الاستقلالية والخصوصية عالما قائما بذاته،وغير مضطر لأن ينسخ الواقع أو يحاكيه وبهذا تكون الدلالة قائمة في النص لا خارجه.وقد اهتمت الشكلانية الروسية بجانب من النص وهو الجانب الشكلي الفني بدعوى الموضوعية والعلمية فكانت الدلالة غير مشغلهم إنما حاولوا دراسة التقنية والبراعة الأسلوبية فركزوا على ما يجعل من الأدب أدبا وهو ما أسماه جاكبسون بالأدبية بقوله:**<<ليس الأدب إنما هي الأدبية؛أي تلك الخصائص التي تجعل من عمل معين عملا أدبيا>>**[21] فالأدبية إذا هي مجموع تلك

الخصائص الداخلية المستقلة في العمل الأدبي التي تنتجه وتميزه،ويستخدم "شكلوفسكي"مصطلح التغريب الذي يوضحه في دراسة "الفن تقنية "بقوله: **<<إن غرض الفن هو نقل الإحساس بالأشياء كما تدرك وليس كما تعرف،وتقنية الفن هي إسقاط الألفة عن الأشياء وتغريبها،وجعل الأشياء صعبة،وزيادة صعوبة فعل الإدراك>>**[22] ،إذا فقد ركز الشكلانيون على هذه التقنية وتناولوا الأدب على أنه استخدام خاص للغة يحقق عبره الانحراف على اللغة العلمية وتشويهها وهذا ما يميزها عن اللغة الأدبية التي ليست لها وظيفة علمية لكنها تجعلنا نرى بشكل آخر مختلف[23]،كما اهتموا أيضا بالشكل على حساب المضمون.وبهذا تكون نسقية المناهج تشكل سلطة نصية قائمة على النسق المغلق ولكن تضع الدلالة في متاهة الضياع.

لقد اكتسب مفهوم الكتابة والقراءة حيزا في المنهج البنيوي الذي أصبح له بعد ذلك بعدا أوسع في مناهج ما بعد البنيوية وكان التركيز على هذا المفهوم مرتبط بتلك القفزة من الاهتمام بالمؤلف إلى الاهتمام بشبكة العلاقات التي ترتبط فيما بينها لتُكَون بنية كلية للعمل الأدبي فصارت الكتابة منظومة من القواعد التي تحتوي على تفاعلات نصية،وصارت القراءة قرينة بالنص المنطوي على معاني ثابتة،ويكون دور القارئ عندها دور المحلل التركيبي والمركب المحلل الساعي إلى كشف شبكة العلاقات والقبض على معانيها.[24] فالقارئ البنيوي ليس حرا في تشكيل الدلالة ولا إنتاجها من خلال ملء شقوق وفراغات النص التي يتركها المؤلف ليصبح القارئ عندها في قبضة اللغة.

وعليه نجد أن المناهج التي اتخذت من النص سلطة وأعلت من شأنه بمختلف جوانبه حتى حادت في دراسة معناه الكامن فيه أو إدراكه وبهذا يكون طرحها ودراستها أمام تكوين سلطة نصية تضيع المعنى.

ثانيا– تحليل الخطاب والقراءة ما بعد الحداثية (سلطة القارئ)

01– القراءة/القارئ وانفتاح النسق (محاولة للتحرر)

إن الطرح الذي جاءت به المناهج النسقية قد غال في الاهتمام بالنص على حساب مؤلفه وقارئه مما جعل الفكر في الدرس النقدي المعاصر يعيد مساءلتها ونقدها في محاولة منه إلى القيام بانقلاب معرفي يعيد التوازن إلى عناصر العملية الإبداعية فإذا كانت البنيوية واتجاهاتها قد ركزت على النص ودعت إلى الانغلاق التام،فإن الحركة الجديدة المسماة "ما بعد البنيوية" "post-structuraliseme" قد حولت السلطة والمركزية إلى القارئ وفتحت النسق فتحا كليا ليحول تحليل الخطاب عندئذ مساره التحليلي من سلطة النص إلى سلطة القارئ أي من النسق المغلق إلى النسق المفتوح،وتمثلت استراتيجيات ما بعد البنيوية في نظرية القراءة والتلقي،التأويل وإستراتيجية التفكيك.فكيف نظرت كل واحدة منها إلى القارئ والقراءة؟

أ– القراءة/القارئ في نظرية القراءة والتلقي والتأويل:

يعد ظهور نظرية التلقي نقلة نوعية ثانية في النقد المعاصر؛فهي أول نظرية نقدية تخص القارئ بدراسات مستقلة ومركزة لتنظر إلى دوره المهم في تشكيل النص وتأويله بتجاوز النسق اللغوي المغلق إلى فتح باب التأويلات الدلالية غير المنتهية،والتي بدورها ستتولد منها نصوص أخرى فتكون القراءة عندها قراءة إنتاجية ويصبح القارئ فاعلا يضمن للنص الاستمرارية. وقد أسست هذه النظرية رؤيتها على تحويل زاوية الفهم من مجال المؤلف والعمل الأدبي إلى قارئه الذي يحاول فهم النص وتأويله في سيرورته التاريخية داخل سياقه وظروفه،وإن هذه السيرورة التاريخية ليست كما في الدراسات التاريخية،بل إن عملية الفهم والتفسير الآني للأثر تمارس في إطار بعد تاريخي متكامل،فهي لم تهمل السياق لما له من أثر على الفهم كما له على الإنتاج،فالتاريخ هنا يتحوّل إلى معيار آني بين كتابة النص وفهمه وتأويله بما يجعل عملية التحليل

والكشف عن حقيقة العمل الأدبي لا تتم انطلاقا من معرفة دقيقة بالسياق،إنما بالنظر إليه من زاوية أنه بنية متحركة تتحول داخل التاريخ وتتم دراستها في لحظة واحدة متصلة بين زمني الكتابة والقراءة.[25]

وتجسدت مقولة النسق المفتوح في حركة ما بعد البنيوية أيضا في نظرية أخرى هي "التأويلية" ذلك لأنها تؤمن بحركية النص وانفتاحه على العديد من القراءات وعدم اقتناعها بالمعنى الأحادي الذي نادت به المناهج القديمة لتصنع من القارئ قراءً ومن النص نصوصا،وهي الأخرى لم تهمل السياق إذ عملت على إدخاله لفهم النص واستخلاص معانيه[26] فالتأويل ممارسة نقدية إيجابية تقوم بإثراء النص وتوليده واستمراره،فلو حاولنا أن نغلق النسق داخل اللغة/النص الأدبي لقضينا على تعددية معنى النص الحاضر التي تأتي بها النصوص المتولدة من فعل القراءة. فالعلاقة بين المتلّقي والنص هي علاقة تقاطع وتداخل،يحاول المتلقي من خلاله أن يتجاوز ظاهره إلى داخله،فيلجأ إلى التأويل الّذي يسعي للوقوف على مرامي المؤلّف ومعرفة كثافة المعنى بين تقلبات الدلالة ويعبر من ثمّ إلى التفكيك الّذي يهتم بفراغات النص.

مما تقدم فإن نظرية القراءة والتلقي والتأويلية قد فتحتا النسق،وجعلتا القارئ عنصرا مركزيا في العملية الإبداعية،إذ هو مزود بحمولة ذهنية،وقارئ لنصوص سابقة،فيجعل منها ومن تاريخها،محاولة في فهم العمل الإبداعي وتفسيره وتأويله.

ب- القراءة/القارئ في إستراتيجية التفكيك:

يعتبر التفكيك أهم الحركات التي أحدثت جدلا كبيرا في الدرس النقدي ذلك لصعوبة التحديد المفاهيمي والمصطلحي له حتى نعته البعض بالزئبقي لما يمارسه من فوضى ولعب داخل اللغة،وقد ناقش جاك دريدا ذلك ضمن أهم كتابين من كتبه هما "في علم الكتابة"و"الكتابة والاختلاف"؛حيث عرفه قائلا:**<< التفكيك هو حركة بنائية وضد البنائية في الآن نفسه فنحن نفكك بناء أو حادثا مصطنعا لنبرز بنياته،أضلاعه،أو هيكله كما قلت،ولكن نمسك في الآن معا البنية الشكلية العارضة والمخربة البنية التي لا تفسر شيئا،فهي ليست مركزا ولا مبدأ ولا قوة أو مبدأ الأحداث بالمعنى الكامل فالتفكيك من حيث الماهية،بالقول عنه أنه طريقة "حصر البسيط" أو تحليل إنه يذهب أبعد من القرار النقدي،من الفكر النقدي لهذا فهو ليس سلبيا مع أنه فسر كذلك على الرغم من كل الاحتياطات>>**[27] لنستشف من خلال هذا المفهوم إلى أن التفكيك هو عملية خلخلة في بناء النص/اللغة وفك مركزيته،لتفتح النسق ويظهر النص بأنساق مخالف لما كان عليه مما يتيح للقارئ قراءة الأنساق الهامشية وإبراز أهميتها فالقارئ من منظور إستراتيجية التفكيك قارئ مجنون،لا يقف عند قراءة واحدة لتكون كل قراءة في الحقيقة هي إساءة قراءة وعليه **<<فإذا كانت مقولة النسق المغلق لا تستوي إلا عبر نظام لغوي محكم وعلاقات تعمل في إطار محدد مطالبة بجمالية اللغة،فإن المشي على أشواك اللغة قصد تشويه هذه المفاصل في تعامل جنوني حيث يهرب المعنى بجناحيه هو المطلوب من منظور مقولة النسق المفتوح>>**[28].

،وبهذا استطاعت مقولة النسق المفتوح مع طرح ما بعد بنيوي إلى أن تحرر القارئ من سجنه وتعيد له قيمته. ويمكن إيراد بعض المفاهيم النقدية التي قدمها دريدا من خلال النقاط التالية:

❋ الاختلاف /الإرجاء

يدور مفهوم الاختلاف أو الإرجاء حول العلامة باعتبارها دلالة مرجئة ترجئ دلالتها مع كل قراءة فهي بذلك تتعالى عن التحديد لتؤسس ثنائية الغياب والحضور فالاختلاف يوضح لنا علاقة اللغة والمرجع كونها حضورا يرسم الإرجاء الذي هو**<<عكس الحضور،أي أننا حين نعجز عن الإتيان بشيء أو فكرة فنحن نشير إليها بكلمة،ومن ثمة فنحن نستخدم العلاقات مؤقتا ريثما تتمكن من الوصول إلى الشيء أو الفكرة وعلى هذا فإن اللغة هي حضور مرجأ للأشياء والمعاني**

ولا يمكن إذن حضورها في وجود اللغة>>[29] وبهذا يكون الإرجاء مفهوما يخلخل ميتافيزيقا المعنى/القراءة الثابت ليتشظى ويتشتت إلى ما لانهاية،ليصبح الاختلاف قانونا لغويا يمارس إرادة القوة ويهب اللغة القوة لتشكل عوالم الدوال المختلفة عن بعضها والمرتبطة ببعضها داخل شبكة العلاقات .

❋ مفهوم الكتابة والقراءة

اهتم دريدا بثنائية الكتابة/الصوت بعد تفحص عميق للمنظومة الفكرية والفلسفية السابقة؛حيث رأى أن النظام السابق قد انشغل بالصوت على حساب الكتابة لم رأو فيها من مخاطر أهمها استغناؤها عن حضور المتكلم ومنح الدور للقارئ في تفكيك الخطاب المكتوب لتصبح عندئذ**<<عبارة عن فعل اطرادي لا يعرف التوقف،دائم البحث عن معان أكثر تعددا وعن آفاق أكثر اتساعا وعن معنى واللامعنى،/.../أنها الحرية في قراءة النص وإعادة كتابته لتنموا بعد ذلك بالابتعاد عن كاتبه>>**[30] لتغدو الكتابة في التصور التفكيكي إنتاجا قرائيا مستمرا يحلاق المعنى الغائب في لج الغياب والمجهول عبر الاختلاف والإرجاء العلامي بين الدال والمدلول فالنص من هذا المنطلق**<<متعدد المعنى،ملتبس الدلالة،كثيف المفهوم،متوتر الوجهة إشكالي القضية والأطروحة،إذ هو علاقته بمكوناته وسياقاته،بقدر ما هو علاقته بممكناته واحتمالاته،ولذا فهو يحتمل غير قراءة ،بقدر ما يختزن ما لا يتناهى من القراءات التي تراكمت وتفاعلت في ذهن مؤلفه،لكي تسهم في تشكيله ظهوره>>**[31] لتصبح القراءة التي لا تنطلق من روح السؤال قراءة واهية لا تثير ولا تثار،والتفكيكي الذي لا يرى حربائية المجاز وتلونات المعاني المتفلتة من وحي الإجابة لا يمكنه خلخلة المعرفة والفكر واللغة.وعليه**<<تكتسح مفردة "القراءة" شاشة الرؤية إلى درجة يكاد يزيح مفردة "الحقيقة"من مركز الصدارة،وينزلها من عرشها>>**[32] حسب تعبير علي حرب.

02- الدلالة وسلطة القارئ:

مع التحول الحاصل للقارئ والقراءة معا في فضاء التأويل والتفكيك يجد الناظر جليا إلى أن الدلالة قد تحولت هي الأخرى وانفتحت فما هي أهم التحولات الحاصلة لها ضمن هذا المنظور؟

تعتبر نظرية القراءة والتلقي **<<حركة تصحيح لزوايا انحراف الفكر النقدي لتعود به إلى قيمة النص وأهمية القارئ،بعد أن تهدمت الجسور الممتدة بينهما بفعل الرمزية والماركسية،ومن ثم كان التركيز في مفهوم الاستقبال لدى أصحاب هذه النظرية على محورين فقط هما على الترتيب القارئ والنص،فالقارئ عندهم هو المحور الأهم والمقدم في عملية التلقي،وعلاقته بالنص ليست علاقة جبرية>>**[33] لأن عملية القراءة والتلقي من منظور جمالي يعني **<<عملية ذات وجهين،إذ تشمل في آن واحد الأثر الذي نتيجته العمل الفني وطريقة تلقيه من قبل القارئ،ويمكن للقارئ أن يستجيب بعدة أشكال مختلفة،فقد يستهلكه أو ينقده،وقد يعجب به،أو يرفضه،وقد يتمتع بشكله ويؤول مضمونه، ويتبنى تأويلا مكرسا أو يحاول تقديم تأويلا جديدا،وقد يمكنه أخيرا من أن يستجيب للعمل بأن ينتج بنفسه عملا جديدا>>**[34].

من خلال ما سبق في المقولة نجد أن نظرية القراءة والتلقي قد ذهبت مذهبا مخالفا لما نظرت إليه المناهج النسقية للدلالة-التي رأت أن الدلالة موجودة داخل النص- لتقول بأن الدلالة لا توجد كلها في النص،بل هي موجودة بين النص والقارئ وفي هذا نجد رائدها فولفغانغ آيزر يقول: **<<وإذا كان الموقع الفعلي للعمل يقع بين النص والقارئ فمن الواضح أن تحقيقه هو نتيجة للتفاعل بين الاثنين>>**[35] مما يعني أن مفهوم الإبداع الأدبي عند نظرية القراءة والتلقي هو تفاعل إنتاجي بين النص وقارئه،ويوضح آيزر أن للنص الأدبي منطقه ولغته الخاصة به،فالدلالة لا تظهر في النص للقارئ ببساطة،فهو يحجبها فتكون مستترة ليقوم القارئ باكتشافها وإضافة إبداعه للنص فيصبح لدينا نص مضاعف نص المبدع ونص المتلقي

المبدع؛حيث يملئ تلك الشقوق والبياضات الموجودة في النص الأدبي التي خلفها المبدع فتكون القراءة الثانية قد انتقلت من إبداع الحرف إلى النبش والحفر في الإبداع ليصبح ذلك الذي<< **لا يقوله لنا النص أو ما لا يوضحه يشكل بنية إبداعية للممكنات**>>[36] هذه الممكنات التي تفتح المجال للقارئ ليبدع نصه من خلال عملية اكتشاف لدلالات أخرى في النص عبر تأويلاته اللامحدودة حيث يقوم القارئ<< **بتفكيك النص وإعادة بنائه سواء بفحص مسلماته وتحليل آلياته أو بنياته وبرصد احتمالاته الدلالية وسبر ممكناته المعرفية أو بالعمل على تأويله وتجديد فهمه واستثماره**>>[37] والقراءة كما يرى آيزر هي:<<**نشاط موجه من طرف النص، وهذا النص يجب أن يعالجه القارئ، ليتأثر بدوره بما سبق أن عالجه**>>[38] بهذا تقوم نظرية القراءة والتلقي بتطبيق مقولة فتح النسق الذي<< **يجعل من النسق اللغوي جزءا أو عنصرا في نسق أكبر هو النسق الإبداعي،بما يضمه من جملة النصوص الإبداعية السابقة للنص محل الدراسة،هذه النصوص التي تشكل في مجملها ذائقة المتلقي التي لا يتناول النص الإبداعي بالدراسة بمعزل عنها، وهو ما يعبر عنه ياوس بأفق القارئ أو مخياله،مما يمكن القول إنه بعض النص**>>[39] وبهذا تكون الدلالة مكونة لإبداع القارئ في نظرية القراءة والتلقي لما تؤسسه كعملية تكاملية بين قطبي النص والقارئ.

وأدى التفكير التفكيكي دورا مهما في نقد الطرح البنيوي،وذلك بالنفي القاطع لثبات المعنى في النصوص ليتحول المدلول إلى دال في كل مرة وهذا ما أسموه بلعب الدوال،من خلال تحليل الهوامش والفجوات والتناقضات داخل النصوص لكونها تسهم في الكشف عن ما ورائيات اللغة للتحرر من الغائية والنمذجة التي حكمت البنيوية حسب رأي ديريدا والتفككيون من بعده لتشكيكهم<<**في قدرة النقد البنيوي على اكتشاف الطاقة الإبداعية والجمالية للنص،لأنها تنطلق من الجزء لتحديد الكل،ذلك أنها لا تهتم بالفوارق والاختلافات الموجودة بين النصوص وإنما تجمعها في ظل نسق واحد يحدد جميع خصائصها**>>[40] وعودة لما سبق في حديثنا عن النسق المفتوح فإن الحديث عن إستراتيجية التفكيك ضمن هذا الإطار حيث يقوم بهدم كل الثوابت والخروج على كل إطار.

خلاصة

نستنتج مما سبق كله أن فعل القراءة كفعل مركزي في تحليل الخطاب قد شغل حيزا كبيرا في مناهج النقد المعاصر،تناوله الباحثون من زوايا مختلفة بحسب توجهاتهم المناهجية مما جعل تحليل الخطاب يغير مفهوم القراءة والدلالة بتغير تلك المناهج لتصبح القراءة عندها محاولة استكشافية تبحث عن الدلالة القائمة بين سلطتين هما:**سلطة النص وسلطة القارئ** اللتان تمثلان عمليتان تكميليتان لفعل القراءة،وسلطة القارئ تعتبر الجزء الأكثر تأثيراً في مفهوم القراءة واستقراء الدلالات المتشكلة في النص[41] مع نظريات ما بعد البنيوية خاصة مع إستراتيجية التفكيك التي جعلت منها بديلا لغياب المعنى والحقيقة.

الهوامش:

1. عبد الحميد إبراهيم:الأدب المقارن من المنظور العربي مقدمة وتطبيق،ط01،دار دمشق،القاهرة،مصر،1997م،ص:100
2. رولان بارط:درس السيميولوجيا،تر:عبد السلام بن عبد العالي، تق:عبد الفتاح كيليطو،ص:81.
3. عبد الوهاب جعفر:البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكو،ط01،دار المعارف،مصر،1989م،ص،ص:11،12.
4. ميجان الرويلي وسعد البازعي:دليل الناقد الأدبي-إضاءة لأكثر من سبعين تيارا و مصطلحا نقديا معاصر،ط03،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء،المغرب،2002م،ص:194.
5. ابن منظور:لسان العرب،مج14،(د.ط)،دار صادر،بيروت،لبنان،2003،ص:165.
6. كمال أبوديب:جدلية الخفاء والتجلي دراسات بنيوية في الشعر،ط03،دار العلم للملايين،بيروت،لبنان،1984م،ص:108.
7. عبد العزيز حمودة:المرايا المحدبة- من البنيوية إلى التفكيك،عالم المعرفة،ع:232،يناير1998م،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت،ص:184.
8. عبد الله الغذامي:النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية،ط03،المركز الثقافي العربي،بيروت،لبان،2005،ص:76
9. حبيب مونسي:نقد النقد المنجز العربي في النقد-دراسة في المناهج، (د.ط)، دار الأديب،وهران،الجزائر،2007،ص:156.
10. يوسف وغليسي:البنية والبنيوية في المعاجم والدراسات الأدبية واللسانية العربية- بحث في النسبة اللغوية والإصلاح النقدي مجلة الضاد، ع06،2010م،جامعة منتوري،قسنطينة،الجزائر،ص:265.
11. جان بياجيه:البنيوية،تر:عارف منيمنة وبشير أوبري،ط04،منشورات عويدات،بيروت،1985م،ص:10.
12. زكريا إبراهيم:مشكلة البنية،(د.ط)،مكتبة مصر،الفجالة،مصر(د.ت)،ص:30.
13. المرجع نفسه،ص:30.
14. المرجع نفسه،ص:31.
15. ليفي ستروس:الأنثروبولوجيا البنيوية،تر:مصطفى صالح،ج01،وزارة الثقافة والإرشاد القومي،دمشق،سوريا،1977م،ص:327
16. الزواوي باغورة:المنهج البنيوي بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات،ط01،دار الهدى،عين مليلة،الجزائر ،2002م ص:92.
17. ليفي ستروس:الأنثروبولوجيا البنيوية،تر:مصطفى صالح،ص:328.
18. جابر عصفور:المصطلحات الأساسية في كتاب عصر البنيوية-مستل من كتاب عصر البنيوية لإديث كروزويل،ط01،دار السعاد الكويت،1993م،ص:413.

*جاءت كلمة الدلالة في اللغة بمعنى التوضيح والإفهام بوجود قرينة في الشيء،يقول في ذلك ابن فارس في معجم (مقاييس اللغة): <<دللتُ فلاناً على الطريق، والدليل الأمارة في الشيء>> ينظر أبو الحسن أحمد(ابن فارس):مقاييس اللغة،تح:عبد السلام محمد هارون،ج02،ط01،دار الجيل،بيروت،لبنان 1991م،ص:259.مادة (دلل).ونجدها أيضا بمعنى الهداية فقد جاء في معجم الصحاح للجوهري:<<الدليل:ما يستدل به.والدليل الدال.وقد دلّه على الطريق يدلّه دلالةً ودِلالةً ودُلولة>> ينظر أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري:تاج اللغة وصحاح العربية،تح:أحمد عبد الغفور عطار،ج:04،ط:02،دار العلم للملايين،بيروت،لبنان،1979م،ص: 1698مادة (دلل). ويمكن لنا أن نخلص إلى عّدة معان تشير إليها كلمة الدلالة ومنها الاهتداء إلى المعنى المراد والإبانة عن شيء غامض والوصول إلى هدف يرجى تحقيقه بأمارة.

19. ياحي أسماء:إشكالية المعنى الأدبي في النظرية الأدبية المعاصرة-إستراتيجية التفكيك-نموذجا، إشراف:عبد الغني بارة،كلية الآداب واللغات،قسم اللغة والأدب العربي،جامعة سطيف 2،الجزائر،(د.ت)،ص:20.

20. عبد العزيز حمودة:الخروج من التيه دراسة في سلطة النص،عالم المعرفة،ع:298 نوفمبر2003،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت،ص:92.

21. بيتر شتاينر:المدرسة الشكلانية الروسية،تر:خيري دومة،موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي،من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية ج08، ع:1045،ط01،2006م،المجلس الأعلى للثقافة،القاهرة،مصر،ص:37.

22. رامان سلدن:النظرية الأدبية المعاصرة،تر:جابر عصفور،ط02،دار قباء،القاهرة،مصر،1998م،ص،ص:29،30.

23. المرجع نفسه،ص:28.

24. محمد بلقاسم:النقد البنيوي-الخلفيات اللسانية والأسس المعرفية والخصائص،مجلة الأثر الآداب واللغات، ع:08،ماي2009م جامعة قاصدي مرباح،ورقلة،الجزائر ،ص:159.

25. الشيخ القاضي:التأويل بين الممكن واللاممكن في الخطاب الشعري الحديث،إشراف:عبد الوهاب ميراوي،جامعة،وهران1،قسم الأدب العربي،وهران-الجزائر،2016،2015،أطروحة دكتوراه،ص:20،21.

26. عبد القادر عبو:في تأويل النص،مجلة الثقافة، ع2004،05،الجزائر،ص:71،72.

27. أحمد عبد الحليم عطية:جاك دريدا والتفكيك،ط01،دار الفرابي،بيروت،لبنان،2010،ص:112.

28. نور الدين حديد:مفهوم الإبداع الأدبي في النقد العربي المعاصر،إشراف:الطيب بودربالة،كلية الآداب واللغات،قسم اللغة والأدب العربي،جامعة سطيف2،الجزائر،2013،2014،ص:50.

29. محمد عناني:المصطلحات الأدبية الحديثة دراسة ومعجم إنجليزي/عربي،ط03،الشركة المصرية،لونجمان،مصر،2003م ص:138،139.

30. بشير تاوريريت وسامية راجح:التفكيكية في الخطاب النقدي المعاصر(دراسة في الأصول والملامح والإشكالات النظرية والتطبيقية) ط01،مكتبة اقرأ،قسنطينة،الجزائر،2006،ص76.

31. علي حرب:هكذا أقرأ ما بعد التفكيك،ط01،المؤسسة العربية،بيروت،لبنان،2005،ص:20.

32. المرجع نفسه،ص:10.

33. عبد الواحد محمود عباس:قراءة النص وجمالية التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة تراثنا النقدي-دراسة مقارنة،ط01،دار الفكر بيروت،لبنان،1996،ص:17،18.

34. خالد الغربي:الشعر ومستويات التلقي،مجلة علامات في النقد،ج34،مج09،النادي الأدبي الثقافي،جدة السعودية 1999، ص:115.

35. فولفغانغ آيزر: فعل القراءة نظرية جمالية التجارب (في الأدب)،تر وتق:حميد لحميداني والجلالي الكدية،(د.ط)،منشورات مكتبة المناهل،فاس،المغرب،(د.ت)،ص:12

36. فيرناند هالين وآخرون:بحوث في القراءة والتلقي،تر/تق/تع:محمد خير البقاعي،ط01،مركز الإنماء الحضاري،حلب،سوريا،1998 ص:44.

37. علي حرب:طريقة التعامل مع النص الفلسفي عند أركون والجابري، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع78،79،بيروت،لبنان،1990 ص: 22

38. فولفغانغ آيزر: فعل القراءة نظرية جمالية التجارب (في الأدب)،ص:94.

39. نور الدين حديد:مفهوم الإبداع الأدبي في النقد العربي المعاصر،رسالة ماجستير،ص:54.

40. بشير تاوريريت وسامية راجح:التفكيكية في الخطاب النقدي المعاصر(دراسة في الأصول والملامح والإشكالات النظرية والتطبيقية) ص:43.

41. وردة سلطاني:النص بين سلطة الكاتب وسلطة القارئ،مجلة المخبر،وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها،كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، ع01،2009،بسكرة،الجزائر،ص:105،106.